الحضور والغياب وتجلياتهما في شعر عبد الوهاب البياتي

أ. إيمان عجيان جمعة السناني(*)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على صاحب اللسان العربي المبين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين؛ وبعد:

إنَّ في تعدد آليات القراءة إثراء للنصوص الشعرية القديمة والحديثة، وزيادة للقيمة الفنية لهذه النصوص، وهناك العديد من القضايا التي تثار حول الشعر قديمه وحديثه، ومنها قضية الحضور والغياب ، وهذه القضية قائمة على حتمية مفادها أن الشعر يقوم على ثنائية ، كثنائية اللفظ والمعنى أو السكون والحركة، او الحضور والغياب كما سنشاهد فيما بعد .

والحضور ضد الغيبة كما يرى صاحب مختار الصحاح، وكما تحدث تودوروف عن علاقات الحضور وعلاقات الغياب، فالأولى هي العلاقات الشكلية، والثانية هي علاقات المعنى والترميز.[١]

ولذا جاءت هذه الدراسة بعنوان" الحضور والغياب وتجلياتهما في شعر عبد الوهاب البياتي"

وفي هذه الدراسة أحاول تقديم قراءة لبعض قصائد الشاعر عبد الوهاب البياتي ورصد ملامح الحضور والغياب وتجلياتهما في نتاجه الشعري.

---

* – باحثة بجامعة طيبة – المملكة العربية السعودية .

التعريف بالشاعر :

والشاعر عبد الوهاب البياتي من أبرز رواد الشعر الحر، ومن أهم الرموز الأدبية في المشهد الثقافي العراقي .

وهو" شاعر عراقي ينبض قلبه بحب الوطن وينشغل وجدانه بقضايا الوطن العربي، ولا نكاد أن نجد شعره يخلو من التعبير عن هموم البسطاء، ولقد تأثر شعر "البياتي" بحياته وزياراته المتعددة في مدن وعواصم مختلفة، كما تأثر بعلاقاته الواسعة مع أدباء وشعراء من عواصم مختلفة، وهو ما جعل شعره يمتاز بالنزعة نحو العالمية، كما تأثر شعره بامتزاجه مع التُراث والرموز الصوفية والأسطورية التي شكلت إحدى الملامح الأهمّ في حضوره الشعري وحداثته، ويكفى فخراً "للبياتي" أنه كان بشعره ينحاز للضعيف، وأن شعره ما هو إلا اعتناق للمبادئ والصدق والعدل والحرية.

إنَّ الناظر بعين الفاحص لشعر "البياتي" يرى الجمع ما بين الألفة والغرابة، حتى أنك قد تستطيع التعرف على قصائده من بين الاف القصائد، فمن يقرأ أشعار " البياتي " يراها متجذرة في الحياة العربية، مهمومة بهمومها وبمآسيها وطغاتها وفقرائها، كما يرى القارئ لشعر "البياتي" مفهوم الحداثة بتجلياتها، ويلاحظ غنى موضوعاته الشعرية وريادتها، ونرى ذلك في قصائد عديدة منها على سبيل المثال لا الحصر قصيدة المخبر:

السيد البرميل

قفاه بطنه وبطنه قفاه ذرب اللسان

...

يتقن فن الكذب والتزوير في الأحكام

يركب كل موجة، لكنه يسقط قبل شاطئ الأمان

.....

له قرون التيس والخرتيت

وضحكة الخنيث[٢]

نجح الشاعر في وصف شخص المخبر وصفاته، ومقاربة صورته ورسم الخطوط الأولى لشخصية المخبر وصفته والذى نستطيع أن نقول أنه برع في ذلك الوصف.

كما تميز " البياتي" بفهم العلاقة الجدلية القائمة بين ثنائية الحضور والغياب في جسد القصيدة الشعرية باعتبار الحضور سمة مرئية والغياب له ظلاله الكثيفة العميقة الغائرة، وهو المدلول الذي يظهر بوضوح مع فعل القراءة المستمرة والحوار مع المتلقي.

ويعتمد الفكر عامة وفكرة الحضور والغياب خاصة على الثنائيات الضدية، وحوار الحدود المتقابلة والمتباينة، فتجتمع في النفس البشرية الثنائيات الضدية، كالموت والحياة، والسواد والبياض، والنور والظلمات، والخير والشر، والحزن والفرح، والحب والكره، ويمكننا القول أن الحياة كلها ما هي إلا ثنائيات نراها في الحياة واضحة الأثر في سكناتنا وحركاتنا، ويحدث أن نرى أحد طرفي الثنائية يحاول أن يجذب الطرف الآخر، وأيضاً نرى المنطقة الوسطى بين الطرفين، فنجد من يحمل الخير والشر بداخله ويتأرجح ما بين الكفتين.

والحضور والغياب هو بنية تقوم على ثنائية ضدية تنبع من التمايز بين عنصرين أساسيين، وبهذه الصفة يكتسب النص طبيعة الجدلية لذا لابد من توافر التضاد؛ ليتشكل النسق، ولكي يتشكل لابد أن ينحل؛ لتنشأ عبر التغاير، وتتعدد الأمثلة للحضور والغياب للثنائيات الضدية في شعر البياتي فمنها ثنائية الموت والحياة والتي تتكرر في كثير من قصائده ومنها قصيدة "الموتى لا ينامون"[٣]:

عائشة ماتت ، وها سفينة الموتى بلا شراع
تحطمت على صخور شاطئ الضياع
-قالت ومدت يدها :الوداع
أراك بعد الغد، في المقهى، وغطت وجهه سحابة
من الدموع ، بللّت كتابه.

فمع أنَّ موت عائشة أكدته الأبيات الشعرية بلفظ " عائشة ماتت " إلا أن ألفاظ كـ "أراك، مدت يدها، قالت الوداع " تمثل استدعاء للحياة في عالم آخر لا يرى فيه قسوة الحياة وظلمها، فالحضور للموت توكيداً لكمون الحياة في صلبه.

وفى قصيدة " الموت في غرناطة" تظهر ثنائية الموت مرة أخرى، مع نفس الرمز "عائشة " فنشعر وكأن ما بين البياتي وعائشة هو شيء شديد الألفة، ولا شرط أن تكون تلك المصادفة المتكررة عن قصد ولكن قد تكون من قبيل الهاجس الفكري أو الوجداني للشاعر، فتحتضن أعماله هذه الرموز الشخصية، وتجعل منها سياقاً ديناميكياً:

عائشةٌ تشقُّ بطنَ الحوت

ترفع في الموج يديها

تفتح التابوت

تُزيح عن جبينها النقاب

تجتاز ألف باب

تنهض بعد الموت

عائدةً للبيت

ها أنذا أسمعها تقول لي لبيك

جاريةً أعود من مملكتي إليك[٤].

ونرى ثنائية الموت مجسدة وبقوة فى ألفاظ كـ " التابوت، الموت " وفى المقابل ألفاظ الحياة كـ " تنهض، عائدة " ، وإذا نظرنا إلى تعريف أرسطو للحضور والغياب نرى أن أرسطو جعل الحضور هو المحسوس الذى قد تغيب صورته عن الحس المشترك ولكن تبقى صورته المتخيلة وهذا هو الغياب وهو ها هنا يراه بالحس المشترك[٥]، فالحضور هنا للموت ولكن تبقى صورة الحياة موجودة فتنطلق الحياة من رحم الموت.

إذا أردنا أن نُنزل المصطلحين مدار الشعر فإننا نلاحظ أن الحضور يمثّل التشكيل والغياب يمثل الدلالة[٦]، وبقدر ما تكون جدلية الحضور والغياب ظاهرة وقوية في النص الشعري بقدر ما يكون ذلك النص معبراً وقوياً.

وهو ما تراه في قصيدته المعبرة " أغنية من العراق "[٧]، حيث ربط الليل والموت والسجون بتشكيل جيد عبر به عن الوضع الذى تعيش فيه العراق في ذلك الوقت، وربط الدلالة في وجود الفاظ كـ " الخضراء، الضياء، فجرنا " فمع وجود المشانق والسجون أوجد الشاعر الأمل في ضياء فجر يوم جديد أملا في السلام في فجر يولد ليوم جديد، حيث يقول:

باسمك في قريتنا النائية الخضراء

في العراق

في وطن المشانق السوداء

والليل والسجون

والموت والضياع

.....

وواهب العروبة الضياء

ومنزل الأمطار فى صحراء

حياتنا الجرداء يا رجاء

عالمنا الجديد

وفجرنا المعذب الوليد.

وهى نفس رؤية " ثودور T. Todorov " في ظاهرتي الحضور والغياب فهي ثنائيات للإثبات فيرى أن علاقات الغياب هي علاقات الترميز والمعنى أما علاقات الحضور فهي العلاقات الشكلية أو البناء[٨]، وهو ما نراه بتجلي في قصيدة "الطفولة"[٩] فيقول البياتي:

الجثث المبقورة البطون

تسد هذا الشارع الملعون

متى؟ متى أيتها الشمطاء

ستمطر السماء

وتولد الحقيقة

من هذه النفاية الغريقة.

نرى الترميز في الأمل الذى يحدو الشاعر في فجر جديد يولد تمطر فيه السماء لتزيل هذه النفايات كما يُزال الدرن من الجسم، أما الألفاظ والعلاقات الشكلية فنراها في تعبيرات "الجثث المبقورة البطون، قتلت نفسى مرتين"، فجاء الحضور ضد الغياب، نسخ ونفي له من حيث هو مسافة مكانيّة وزمانيّة. فجاءت دلالة الغياب في وعي الشّاعر ووجدانه العقائديّ ليتجلّى معنى الحضور أو تتجلّى معانيه في أكمل الصّور الممكنة.

ولقد قامت الأساليب على تدبير مواقع الكلمات داخل نسق معين، لأن "اختيار الكلمات لا يكون مفيدا إلاّ إذا أحكم توزيع هذه الكلمات، وهي تتوزع على مستويين: حضوري وغيابي. فهي تتوزع سياقيا على امتداد خطي، ويكون لتجاورها تأثير دلالي وصوتي وتركيبي.. وهي أيضا تتوزع غيابيا في شكل تداعيات للكلمة المنتمية لنفس الجدول الدلالي" [١٠].

الشعر في صمت المصح بلا دموع

وبلا شموع

يموت في عيني كقديس شهيد

وعلى غطاء فراشي الدامي، شعاع

من شمس أيلول تلألأ كالشراع.

فنرى دلالات هذا المقطع في إطار المعاناة التي جسدها الشاعر مادياً في الآم الجسد، ومعنوياً في عدم حضور الشعر ليكون له عوناً على المعاناة، فالحضور افتراضياً على هيئة دموع على فراش المصح، ونجد تأثير دلالي وصوتي وتركيبي في استخدامه شبكة من

الأصوات من الحروف المتقاربة من حيث الخصائص الصوتية وهى (الميم ، والشين ، والعين) ، فالميم والعين هي حروف جهر متوسطة الشدة، أما الشين فمن الحروف الرخوة.

إن تجاور القرب والبعد في الموقف الواحد، يفرض على النفس تحسس الفروق التي تلحق كل واحد منهما بالنسبة للواقف عليهما. هناك "قبر"و "منزل"، وهناك "بعد"و "نأي"، وهناك "سطح" و"عمق". إنها التعارضات التي تعطي للمكان الجديد خصوصية الحضور والغياب في آن واحد. حضور تشهده العين، وترقب مظاهره، وغياب تتحسسه النفس، وتستشعر آثاره. مما يعطي للمكان الجديد صفة "البرزخية" التي تفصله عن المكان المعطى، وترحل به إلى مسافة ما بين الدارين. خارج الظرف الزماني الحياتي. فهو ماثل فيه مثول المادة، غائب عنه غياب الروح.

وهو ما يظهر جلياً في قصيدة " موعد مع الربيع "[١١] فيقول:

لو لم تمت

وحجبت عن عيني الجليد

وصرخت من أعماق يأسى " لا أريد ! "

هي والسنونو والربيع، غدا تعود

جاءت ألفاظ كـ " الجليد، والربيع "، والفاظ " تمت، غدا تعود" تمثل تجاور القرب والبعد في للموقف الواحد، وهو ما يُجبر المتلقي إلى محاولة فهم التعارضات التي تعطي للمكان الجديد خصوصية الحضور والغياب، في آن واحد، فعين الشاعر تبصر وتتبصر؛ تبصر الواقع المؤلم، وتتبصر الموت القادم؛ لذلك بدأ كلامه " لو لم تمت " لإخراج الانفعالات الكامنة في داخله، ومن التآلف ما بين " الربيع والجليد " تأخذ الأبيات حظها من الجمالية فالربيع حياة والجليد الموت يقفان جنباً إلى جنب. ونستطيع القول أن الشاعر لا يتحدث عن المكان بقدر ما يتحدث بالمكان .

الخاتمة:

الحمد لله رب العالمين على أن يسر لي إتمام هذا البحث، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد..

تناولت هذه الدراسة" الحضور والغياب وتجلياتهما في شعر عبد الوهاب البياتي" وقد توصلت إلى مجموعة من النتائج، من أبرزها:

–ما نستطيع أن نستنجه من هذه المفاهيم لمصطلح الحضور والغياب، أن الحضور هو الدال المادي أما الغياب فهي القيم الغائبة، أو ما لا يمكن إدراكه، فإذن الحضور إلى جانب الغياب هو لتأكيد وحدة الأثر الإبداعي في جملة واحدة.

– ونستطيع أن نقول أن " البياتي " هو شاعر جمع ما بين الشكل والمضمون في الشعر، ودمج ما بين القديم والحديث، تميز بغزارة المضمون وتنوع الأغراض فبدأ بالرومانسية ثم اتجه للسياسية.

– عبد الوهاب البياتي شاعر يتسم ببعد النظر والتجديد، شاعر مثل صورة مشرفة للمبدع العربي بأحلامه بالفضيلة والمثل العليا والمبادئ السامية. .

– التجربة الشعرية عند عبدالوهاب البياتي مرتبطة ارتباطا وثيقا بقضية الحضور والغياب .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

الهوامش :

1 Todorov,(Tzvetan) poetique, seuil, paris, 1973, p29-30

٢ ديوان عبد الوهاب البياتي، المجلد الأول، دار العودة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠، ص ٣١٤.

٣ الأعمال الكاملة للشاعر عبد الوهاب البياتي ، الذى يأتي ولا يأتي، دار الشروق،ط١٩٨٥،٤م، ص ٢٢.

٤ ديوان عبد الوهاب البياتي، المجلد الثاني، دار العودة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠، ص ١٤٣.

٥ عاطف جودة: الخيال مفهوماته ووظائفه ، المصرية العالمية للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص ٧.

٦ د حسين خمري: الظاهرة الشعرية العربية الحضور والغياب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م، ص ١٥.

٧ عبد الوهاب البياتي: المجد للأطفال والزيتون، دار الفكر ،القاهرة، ص ٩.

8 Todorov,(Tzvetan) poetique, seuil, paris, 1973, p29-30

٩ الأعمال الكاملة للشاعر عبد الوهاب البياتي، مرجع سابق، ص ١٢.

١٠ ابن خفاجة: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، ص ٧.

١١ عبد الوهاب البياتي: خمسون قصيدة حب، تقديم ابراهيم قيسومة، دار سحر للنشر، ١٩٩٧م، ص ٢٥ : ٢٧.

قائمة المراجع:

المراجع العربية:

١. ابن خفاجة: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، الطبعة الأولى.

٢. حسين خمري: الظاهرة الشعرية العربية الحضور والغياب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م.

٣. عاطف جودة: الخيال مفهوماته ووظائفه، المصرية العالمية للنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٤. عبدالوهاب البياتي: الأعمال الكاملة، الذى يأتي ولا يأتي، دار الشروق، ١٩٩٠، ط٥.

٥. عبد الوهاب البياتي: ديوان المجد للأطفال والزيتون، دار الفكر، القاهرة، د.ت، د.ط.

٦. عبد الوهاب البياتي: ديوان خمسون قصيدة حب، تقديم ابراهيم قيسومة، دار سحر للنشر، ١٩٩٧م، الطبعة الأولى.

المراجع الأجنبية:

Todorov,(Tzvetan) poetique, seuil, paris, 1973.